الترتيل في تلاوة القرآن

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾.

(سورة المزمل)

التحليل اللفظي

المزّمل: قال اللغويّون: (المزّمل) الملتف في ثيابه، وأصله (المتزمّل) فأدغمت التاء في الزّاي فثقّلت، وكل من التفّ بثوبه فقد تزمّل. قال امرؤ القيس:

كأنّ أباناً في أفانينِ وَدْقِهِ كبيرُ أُناسٍ في بجَادٍ مزمّل[1]

وقال ذو الرمّة: ومن نائمٍ عن ليلها متزمّل[2].

ورتّل القرآن: قال الزجّاج: رتّل القرآن ترتيلاً: بيّنه تبييناً، والتبيين لا يتم إلّا بإظهار جميع الحروف، وتوفيتها حقها من الإشباع.

وقال المبرّد: أصله من قولهم: ثغر رتل إذا كان بين الثنايا افتراق ليس

---

(١) البحر المحيط ٨/٣٥٨، والقرطبي ٢٠/٣٠، واللسان ــ مادة (زمل).

(٢) صدر البيت: وكائن تخطت ناقتي من مفازة... وانظر البحر المحيط ٨/٣٥٨.

بالكثير، وقال الليث: الترتيل تنسيق الشيء، وثغر رتل: حسن التنضيد[1].

ومعنى الآية: اقرأ القرآن على تُؤدة، وتمهّل، وتبيين حروف، مع تدبر المعاني.

ناشئة الليل: أوقات الليل وساعاته، سميت بذلك لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء، يقال: نشأ السحاب إذا ابتدأ، فناشئة (فاعلة) من نشأت تنشأ فهي ناشئة، والمراد ساعات الليل الناشئة، فاكتفى بالوصف عن الاسم[2].

وقال الزمخشري: ناشئة الليل: النفس الناشئة بالليل، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة أي تنهض، وأنشد ابن السكيت:

فلمّا أن تَنَشَّأ قام خِرْق من الفتيان مختَلَق هضوم[3]

أشد وطأ: أي أثقلُ على المصلي من ساعات النهار، من قول العرب: اشتدت علينا وطأةُ السلطان، إذا ثقل عليهم ما حمّلهم من المؤن، وفي الحديث: «اللهمّ اشدُدْ وطأتك على مُضَر»[4]، فالليل وقت النوم والراحة، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة.

والمعنى: إن قيام الليل للعبادة، وقضاء ساعاته في الطاعة، أشدّ ثقلاً على النفس، وأرجى عند الله وأقوم.

وأقوم قيلاً: أي أشدّ استقامة واستمراراً، وأكثر استقامة على نهج الحق والصواب، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات فتخلص فيه القراءة، ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون تسمعه وتفهمه حائل.

سبحاً: قال المبرّد: سبحاً أي تقلباً وتصرفاً في المهمّات كما يتردّد السابح في الماء. قال الشاعر:

---

(١) الفخر الرازي ٨/٣٣٤، والقرطبي ٢٠/٣٦.

(٢) القرطبي ٢٠/٣٨، والبحر المحيط ٨/٣٦٢.

(٣) الكشاف، الجزء الرابع، وانظر لسان العرب ــ مادة (نشأ).

(٤) الحديث من رواية البخاري ومسلم في قصة (القنوت في الفجر).

أباحوا لكم شرقَ البلاد وغربَها ففيها لكم يا صَاحِ سَبْحٌ من السَّبْح[1]

قال في اللسان: السَّبْح: الفراغ وفي التنزيل: ﴿سبحاً طويلاً﴾، إنما يعني به فراغاً طويلاً وتصرفاً، وقيل: معناه: لك في النهار ما تقضي حوائجك.

وقال الزجاج: إن فاتك من الليل شيء من النوم والراحة، فلك في النهار فراغ فاصرفه إليه[2].

وقال ابن عباس: لك في النهار فراغ لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك[3].

وتبتّل: التبتّل الانقطاع إلى العبادة، ومنه قيل لمريم عليها السلام (البتول) لأنها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وأصل البتل: القطع، ويقال للراهب (متبتّل) لانقطاعه عن الناس، وانفراده بالعبادة. قال امرؤ القيس:

تضيءُ الظَّلامَ بالعشَاء كأنها مَنَارة مُمْسى راهبٍ متبتّل[4]

هجراً جميلاً: أي لا تتعرض لهم، وجانبهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم.

المعنى الإجمالي

يقول الله تعالى ما معناه مخاطباً نبيّه الكريم: يا أيها المتزمّل المتلفّف في ثيابه، قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، قم للجهد والنصب، والكدّ والتعب، فقد مضى وقت الراحة، قم فشمّر عن ساعد الجد، وأحيي الليل كلّه أو نصفه أو أقل قليلاً، بالصلاة والتضرع، والعبادة والتخشع، لتستعد لنفحاتنا القدسيّة، لأننا

---

(١) البحر المحيط ٨/٣٦٣، والألوسي ٢٩/١٠٥.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٨/٣٣٧، وانظر اللسان ـ مادة (سبح).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٨/٣٩٢.

(٤) معنى البيت: إذا ابتسمت بالليل رأيت لها بريقاً وضوءاً، وإذا برزت في الظلام استنار وجهها حتى يغلب ظلمة الليل.

سوحي إليك بهذا القرآن العظيم، الثقيل في القدر، العظيم في الأجر، الرصين في الجزالة والتعبير، فاقرأ بتدبر وتبصر في قيامك بالليل، ورتّله على مهل بخشوع وإنابة فإن قيام الليل بالصلاة، وقضاء ساعاته في الطاعة، أشدّ ثقلاً على النفس، وأرجى للقبول عند الله.

ولك يا محمد في النهار تقلباً طويلاً في مهامّك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، واذكر اسم ربك لتستمدّ قوّتك منه، وانقطع لعبادته ولا تتوجّه لأحد سواه، فهو الناصر والمعين، وهو رب العزّة، ذو الجلال والإكرام، الذي لا يخيب من التجأ إليه، فاجعله وكيلاً لك في جميع الأمور.

واصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، وعن صدودهم وإعراضهم عن دعوتك، ولا تتعرّض لهم ولا تقابلهم بمثل إساءتهم، واهجرهم بالحسنى حتى يجعل الله لك من أمرك فرجاً ومخرجاً، بالنصر عليهم ونصر الله قريب.

وجوه القراءات

أولاً: قرأ الجمهور (يا أيّها المزّمّل) بتشديد الزاي والميم، وقرأ أبَيّ بن كعب وأبو العالية (المتزمّل) بإظهار التاء على الأصل[1].

ثانياً: قرأ الجمهور (هي أشدّ وَطْئاً) وقرأ ابن عامر وأبو عمرو (وِطاءً) بكسر الواو مع المدّ، وقرأ ابن محيصن (أشدّ وَطَاءً) بفتح الواو، والطاء، وبالمد[2].

وجوه الإعراب

أولاً: قوله تعالى: ﴿يا أيها المزمّلُ. قم الليلَ إلاّ قليلاً﴾.

(المزمّلُ) صفة لـ (أيّ) قال ابن مالك:

وأيّها مصحوبَ (أل) بعدُ صفة.

و (نصفَه) بدل من الليل، بدل بعضٍ من كلّ.

---

(١) القرطبي ١٩/٣٠، والألوسي ٢٩/١٠٠.

(٢) البحر المحيط ٨/٣٦٠، وزاد المسير ٨/٣٨٨.

قال الزمخشري: (نصفَه) بدل من الليل، و(إلاّ قليلاً) استثناء من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصف الليل، والضمير في (منه) يعود للنصف[1].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أشدّ وطأ﴾، لفظ (أشدّ) خبر المبتدأ، و(وطأ) تمييز[2]. وجملة (هي أشدُّ وطأً) خبر (إنَّ).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾، تبتّلْ: أمر و(تبتيلاً) مفعول مطلق وهو غير جارٍ على فعله، والأصل فيه أن يُقال (تبتّلاً) ولأن وزن (تفعيل) إنما تجيء في مصدر (فعَّل) كقولهم: رتّل ترتيلاً، وأما وزن (تفعّل) فيأتي المصدر (تفعلاً)، إلا أنهم قد يُجرون المصدر على غير فعله كقول الشاعر:

وخيرُ الأمرِ ما استقبلتَ منه ... وليس بأن تتبّعَه اتّباعاً[3]

فأجرى اتباعاً مصدراً على (تتّبع) والقياس (تتّبعاً) والشواهد على هذه كثيرة.

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى: الحكمة في ندائه ﷺ بوصف التزمل هو إرادة (الملاطفة والإيناس) على نحو ما كان عليه العرب في مخاطباتهم من اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي كرّم الله وجهه، لمّا غاضب فاطمة وذهب إلى المسجد فنام فيه ـ وكان قد لصق بجنبه التراب ـ: قم أبا تراب، قم أبا تراب، للمؤانسة والملاطفة.

اللطيفة الثانية: سبب التزمل ما روي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(جاورتُ بحراء فلمّا قضيتُ جواري هبطت فنوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرتُ خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت

---

(١) الكشاف، الجزء الرابع، والبحر المحيط ٨/٣٦٠.

(٢) البيان في غريب إعراب القرآن ٢/٤٦٩.

(٣) البيت للقطامي، واستشهد به ابن جني في كتابه الخصائص ٢/٣٠٩.

رأسي فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجُئِثْتُ (فزعت) منه رعباً فرجعت فقلت: زمّلوني زمّلوني، فأنزل الله: ﴿يا أيها المدثّر قم فأنذِرْ... إلى قوله: والرُّجزَ فاهجُرْ﴾[1].

فسببُ التزمل هو ما عراه ﷺ من الرعب والفزع من رؤية الملك على صورته الملكيّة.

اللطيفة الثالثة: ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ثلاثة أشياء وصفها بـ (الجميل) وأمر بها نبيّه عليه الصلاة والسلام وهي: قوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾.. ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾.. ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾.

فالصبرُ الجميل الصبرُ الذي لا شكوى معه.

والهجرُ الجميل الهجرُ الذي لا أذيّة معه.

والصفح الجميل الصفحُ الذي لا عتاب معه.

اللطيفة الرابعة: (في الصحيح أنه ﷺ كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه، فقالت له السيّدة عائشة، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال لها عليه السلام: أفلا أكونُ عبداً شكوراً!!). فصلوات ربي وسلامه على نبيّه المصطفى وحبيبه المجتبى.

الأحكام الشرعيّة

الحكم الأول: هل قيام الليل كان فريضة على الرسول ﷺ؟

ظاهر قوله تعالى: ﴿قم الليل إلاّ قليلاً﴾ أن التهجد كان فريضة عليه ﷺ وأنّ فرضيّته كانت خاصة به، وممّا يدل عليه قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ومن الليل فتهجّدْ به نافلةً لك﴾، فإنّ قوله: ﴿نافلة لك﴾ بعد الأمر بالتهجد ظاهر في أن الوجوب من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وليس معنى النافلة في هذه الآية ما يجوز فعله وتركه، فإنه على هذا الوجه لا يكون خاصاً به عليه الصلاة والسلام، بل معنى كون التهجد نافلة له أنه شيء زائد على ما هو مفروض على سائر الأمة.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوحي ١/٢٧ وأحمد في المسند.

وقد كان المؤمنون يصلون مع الرسول ﷺ حتى ورمت أقدامهم وسوقهم من القيام، فنسخ الله تعالى ذلك بقوله في آخر السورة: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذين معك. . .﴾، إلى قوله: ﴿علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسّر من القرآن. . .﴾ الآية.

قال ابن عباس: وكان بين أول هذا الإيجاب وبين نسخه سنة[1].

وقال جماعة من المفسّرين: ليس في القرآن سورة نسخَ آخرُها أوّلَها سوى هذه السورة[2].

الحكم الثاني: هل تجوز قراءة القرآن بالتلحين؟

أمر الله جلّ ثناؤه بترتيل القرآن: ﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾، أي اقرأه على تؤدة وتمهل وتبين حروف، بحيث يتمكن السامع من استيعابه وتدبر معانيه.

ولا خلاف بين العلماء أن قراءة القرآن بالترتيل بمعنى التجويد، وهو تبيين الحروف وتحسين المخارج وإظهار المقاطع، حسن مطلوب، إنما الكلام في التغنّي به وتلحينه هل هو جائز أم ممنوع؟.

وقد اختلفت فيه آراء الأئمة الفقهاء، تبعاً لاختلاف الصحابة والتابعين، ونحن نذكر مذاهبهم مع أدلة كلّ فريق بشيء من التفصيل، فنقول ومن الله نستمدّ العون:

مذاهب الفقهاء في القراءة بالتلحين:

أولاً: مذهب (**المالكية والحنابلة**): كراهة القراءة بالتلحين، وهو منقول عن (أنس بن مالك) و (سعيد بن المسيّب) و (سعيد بن جبير) و (القاسم بن محمد) و (الحسن البصري) و (إبراهيم النخعي) و (ابن سيرين).

ثانياً: مذهب (**الحنفيّة والشافعية**): جواز القراءة بالتلحين، وهو منقول عن (عمر بن الخطاب) و (ابن عباس) و (ابن مسعود) و (عبد الرحمن بن الأسود بن زيد)، وقد ذهب إليه من المفسرين (أبو جعفر الطبري) و (أبو بكر بن العربي).

---

(١) الفخر الرازي ٨/٣٣٣، وزاد المسير ٨/٣٨٩، والقرطبي ٢٠/٣٣.

(٢) زاد المسير ٧/٣٨٩، والقرطبي ٢٠/٣٦.

أدلة المذهب الأول:

(أ) حديث: «اقرؤوا القرآن بلحونِ العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحونَ أهل الكتاب والعِشقِ، فإنه يجيءُ من بعدي أقوام يرجّعُون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح، لا يجاوزُ حناجرهُمْ، مفتونةً قلوبُهم وقلوبُ الذين يعجبهم شأنُهم»[1].

فقد نعى عليه السلام على من يرجّع بالقرآن ترجيع الغناء والنوح على نحو ما يفعله أكثر قرّاء هذا العصر.

(ب) حديث: «يتخذون القرآن مزامير، يقدّمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم ليغنّيَهم غناءً»[2].

(ج) حديث: «إنّ الأذانَ سهلٌ سمحٌ، فإن كان أذانُك سهلاً سمحاً وإلاّ فلا تؤذّن»[3]، قالوا: فقد كره النبي ﷺ أن يطرب المؤذن في أذانه، فدلّ ذلك على أنه يكره التطريب في القراءة بطريق الأولى.

(د) وقالوا أيضاً: إن التغنّي والتطريب يؤدي إلى أن يزاد على القرآن ما ليس منه، وذلك لأنه يقتضي مدّ ما ليس بممدود، وهمز ما ليس بمهموز، وجعل الحرف الواحد حروفاً كثيرة وهو لا يجوز، هذا إلى أن التلحين من شأنه أن يلهي النفوس بنغمات الصوت، ويصرفها عن الاعتبار والتدبر لمعاني القرآن الكريم.

وقد سئل (مالك) عن الألحان في الصلاة، فقال: لا تعجبني، وقال: إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم.

وروي عن الإمام (أحمد) أنه كان يقول: قراءة الألحان ما تعجبني، والقراءة بها بدعة لا تسمع.

---

(١) رواه الترمذي في نوادر الأصول عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني في الأوسط، وفيه راوٍ لين بمعتمد، وانظر جامع الأصول ٢/٤٥٩.

(٢) انظر أحكام القرآن للسايس، الجزء الرابع ص ١٩٤.

(٣) الحديث رواه الدارقطني عن عطاء، عن ابن عباس، وفيه: كان لرسول الله ﷺ مؤذن يطرب، فقال له النبي: ...، إلخ.

وسئل: ما تقول في القراءة بالألحان؟ فقال للسائل: ما اسمك؟ قال: محمد، قال له: أيسرّك أن يقال لك: يا موحامد ممدوداً؟

أدلّة المذهب الثاني:

واستدل المجيزون للقراءة بالتلحين وهم (الحنفية والشافعية) بأدلة نوجزها فيما يلي:

(أ) حديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»[1].

(ب) حديث: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[2].

(جـ) حديث عبد الله بن مغفّل قال: (قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسير له سورة (الفتح) على راحلته فرجّع في قراءته)[3].

(د) حديث أن رسول الله ﷺ استمع ليلة قراءة أبي موسى الأشعري، فلما لقيه قال له: «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»، فقال له أبو موسى: (لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيراً)[4].

(هـ) حديث: «ما أذِنَ الله لشيء أذَنه[5] لنبيّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن»[6].

(و) **وقالوا أيضاً**: إنّ الترنّم بالقرآن والتطريب بقراءته، من شأنه أن يبعث على الاستماع والإصغاء، وهو أوقع في النفس، وأنفذ في القلب، وأبلغ في التأثير.

---

(١) الحديث رواه أبو داود رقم ١٤٦٨، والنسائي ٢/١٨٠، وأحمد في المسند ٤/٢٨٣.

(٢) الحديث رواه أبو داود رقم ١٤٧٠، وأخرجه أحمد رقم ١٤٧٦، وابن ماجه رقم ١٣٣٧.

(٣) الحديث رواه البخاري عن عبد الله بن مغفل، ورواه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير ٤/١٩٦.

(٤) الحديث رواه مسلم رقم ٧٩٣ ولفظه: (لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود...) إلخ، وأخرجه البخاري في فضائل القرآن ٩/٨١.

(٥) أذن بمعنى استمع، والأذن بفتحتين الاستماع، قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكِرتُ بهِ ... وإن ذُكِرتُ بشرٍّ عندهم أذُنُوا

(٦) الحديث رواه البخاري ٩/٦٠ في فضائل القرآن، ومسلم رقم ٧٩٢، وانظر جامع الأصول ٢/٤٥٧.

وقد روى الطبري عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري: ذكّرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن فيقول عمر: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل.

وكان ابن مسعود تعجبه قراءة (علقمة الأسود) ـ وكان حسن الصوت ـ فكان يقرأ له علقمة، فإذا فرغ قال له: زدني فداك أبي وأمي.

هذه خلاصة موجزة لأدلة الفريقين، وأنت إذا أمعنت النظر وجدت أن الخلاف بينهم يكاد يكون (شكلياً) لا (جوهرياً) فالفقهاء جميعاً متفقون على حرمة قراءة القرآن بالأنغام، التي لا تراعى فيها أحكام التجويد، كمدّ المقصور، وقصر الممدود، وترقيق المفخّم، وتفخيم المرقق، وإظهار ما ينبغي إدغامه، وإخفاء ما ينبغي إظهاره... إلخ، والتي يكون الغرض منها (التطريب) وإظهار جمال الصوت فحسب، دون تقيّد بالأحكام وآداب التلاوة، كما يفعله بعض الجهلة من قراء هذا العصر، فإن هذا لا يشك أحد في تحريمه.

أما إذا كان المراد بـ (التلحين) هو تحسين الصوت بالقراءة وإخراج الحروف سليمة من مخارجها، دون تقعر أو تمطيط، مع تطبيق أحكام التجويد ومراعاة الوقوف والمدود، فإن هذا لا يقول أحد بتحريمه، لأن الصوت الحسن يزيد في جمال القرآن، وله أثر في نفس الإنسان، وقد استمع النبي عليه الصلاة والسلام إلى قراءة بعض أصحابه، فأعجب بحسن صوته حتى قال لأبي موسى الأشعري: «لقد أعطيتَ مزماراً من مزامير آل داود»، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

تمّ بعونه تعالى الجزء الثاني من كتاب «روائع البيان»، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
غرة رجب الفرد ١٣٩١ هجرية